شهادة صدق ووفاء في رحيل المفكر وعالم النفس مصطفى حجازي

الغالي أحرشاو
aharchaou.rhali@gmail.com
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، المغرب

الاستلام: 2024/11/06 القبول: 2024/11/25 النشر: 2024/12/31

في الصورة من اليمين إلى اليسار: **الغالي أحرشاو** و**مصطفى حجازي** خلال مشاركتهما في مؤتمر " **المشروع الحضاري العربي**" المنعقد بفندق روايال ميراج بفاس سنة 1993.

السادة الكرام والسيدات الكريمات أهل وأسرة المرحوم أ.د. مصطفى حجازي بصدق كان بودي أن أكون من ضمن الحاضرين بينكم ومعكم السادة والسيدات أهل الفقيد وأسرته لأن المناسبة عظيمة وجليلة، لولا ظروف الحرب المدمرة التي أضحت تخيم بظلالها على مساحات كبيرة من الشرق الأوسط وخاصة في فلسطين المنكوبة ولبنان الجريحة. فمثلما أخبرت بذلك أحد أصدقائي في بيروت الصامدة الذي تقاسم معي مشكورا خبر رحيل صديقنا الكبير الدكتور مصطفى حجازي إلى دار البقاء يوم الإثنين 14 أكتوبر 2024 عن عمر يناهز 88 عاما"، فلولا تلك الظروف القاهرة لما وجدت من عذر أتحجج به لتبرير غيابي عن مراسيم جنازة هذا الإنسان القدوة والمفكر النموذج الذي يعد من خيرة علماء النفس والإنسان عامة في العالم العربي. فأمام هذا الحدث الجلل لا يسعني إلا أن أتقدم باسمي وباسم زملائي علماء وأطباء النفس في المغرب إلى أسرته الصغيرة وعائلته الكبيرة وإلى كافة محبيه وأصدقائه وطلبته من داخل هذه الشهادة المقتضبة، بأغلى مشاعر التعازي الحارة والمواساة الصادقة، سائلا الله جل جلاله وعظم شأنه أن يحيطه بواسع رحمته ويلهمنا جميعا جميل الصبر والسلوان في فقدانه ورحيله عنا إلى دار البقاء... وإنا لله وإنا إليه راجعون. أكيد أنه ليس هناك أشد قسوة وأبلغ حرقة على الإنسان أكثر من أن يتلقى نبأ وفاة صديق عزيز من طينة المفكر والنفساني مصطفى حجازي الذي وكما عرفته وعاشرته منذ ثمانينات القرن العشرين من خلال بعض مؤلفاته أولا وبعدها من خلال لقائي به في مناسبتين علميتين كبيرتين: تمثلت أولاهما في ندوة " علم النفس وقضايا المجتمع المعاصر" بكلية الآد اب بالرباط عام 1991 التي ساهمنا فيها بورقتين في الموضوع، والثانية تجلت في مؤتمر " المشروع الحضاري العربي" الذي احتضنته مدينة فاس المغربية سنة 1993 والذي شاركنا فيه أيضا بمداخلتين اثنتين في الموضوع، قد اجتمعت في شخصه الكريم أنبل خصال الإنسان الطيب الخلوق، وأرقى صفات العالم الكفء المتواضع، ثم أهم مقومات الأستاذ الباحث الناجح وسمات عالم النفس الخبير الأصيل. فعلى الرّغمِ مِن أنّ الموت ح ق على كُلِ إنسان، إلا أن انعكاساته على النفس بمكوناتها الوجدانية والمعرفية عادة ما تكون شديدة الوقع والواقع وعميقة الأثر والتأثير، إذ لا يبقى لشخص مثلي في هذا الوضع المهيب سوى استرجاع بعضا من الذكريات الجميلة والمعبرة التي جمعتني بالصديق الصدوق والمفكر الكبير الفقيد مصطفى حجازي، منذ نشره لكتابيه المميزين:" التخلف الاجتماعي مدخل إلى دراسة سيكولوجية الإنسان المقهور" (1981)، ثم " تأهيل الطفولة غير المتكيفة: الأحداث الجانحون" (1985)، ومنذ التحاقه أيضا كأستاذ لعلم النفس سنة 1983 بالجامعة اللبنانية، وبعدها كأستاذ للصحة الذهنية بجامعة البحرين في الفترة الممتدة من 1990 إلى 2006، وأخيرا كأستاذ زائر في كلية الطب بجامعة الخليج العربي عام 2007، قبل أن يتقاعد ويتفرغ للبحث وتقديم الخبرة والاستشارة بداية من 2008 وخاصة في كل ما يهم العلاج الفردي والجماعي والتدريب والتنمية المحلية والتخطيط الاجتماعي والتقييم والإرشاد في مؤسسات الأسرة والمدرسة والمقاولة ورعاية الأيتام والأحداث. فمنذ أن عرفته في ثمانينات القرن الماضي أستاذا باحثا متمكنا ونفسانيا ممارسا خبيرا، وقنوات التواصل العلمي والإنساني مفتوحة ومنتظمة بيننا، حيث امتطينا معا قطار التكوين والتأطير والبحث والإنتاج، وتقاسمنا خبرات وتجارب التدريس والأستاذية والعطاء العلمي، وبنينا بمعية ثلة مرموقة من علماء النفس العرب "حجرا حجرا وطوبا طوبا " أسس ومقومات علوم النفس المأمولة في العالم العربي التي أصبحت والحمد لله منارات ومصابيح ساطعة تضيء وتنير مدرجات وقاعات ومختبرات أغلب الجامعات العربية بأضواء وأشعة كلها عطاء علمي وتوه ج معرفي. فمؤلفاته 17 المنشورة ما بين 1981 تاريخ صدور كتابه الأول حول سيكولوجية الإنسان المقهور و2011 تاريخ صدور كتابه الأخير عن علم النفس الإيجابي، والتي قاربت الشخصية العربية في أبعادها السوية والمرضية، الإيجابية والسلبية، النفسية والثقافية، المتزنة والجانحة، التفاعلية والعلائقية، ومشاريعه للتقييم والتخطيط والتدريب والعلاج والتنمية، كلها ساهمت في هذا التأسيس لمنظومة نفسية عربية أصيلة قوامها استكشاف وسبر أغوار تلك الشخصية ومقوماتها المتنوعة.

الأكيد أنك أيها الصديق الكبير لن تنسى، مثلما لن أنسى أنا أيضا، سنوات ومحطات ولحظات مشرقة من عملنا الجامعي الخصب والمثمر، المتشبع بالضمير المهني الجاد، والوازع الأخلاقي النبيل والعطاء العلمي السخي داخل قاعات ومدرجات ومختبرات كلياتنا العتيدة لأربعة عقود ونيف، حيث درسنا وكونا وأطرنا ووجّهنا أفواجا من طلبة علوم النفس والتربية والاجتماع والفلسفة، يُعدون بالمئات بل بالآلاف، وخاصة في شهادات الإجازة والماستر والدكتوراه. فلا أحد يمكنه أن ينكر بأن الحصيلة والمخرجات كانت خصبة النتائج ومثمرة الغلال، قد نستشهد على جوانب منها على سبيل المثال فقط بالنخب المرموقة والطيبة من طلبتكم وطلبتنا النجباء الجادين المجدين الذين أصبحوا من أفضل الأساتذة وأكفإ الباحثين وأمهر الممارسين في عدد من المؤسسات الجامعية والبحثية والصحية على امتداد أغلب الأقطار العربية. وأعتقد جازما أن عددا ليس بالقليل من هؤلاء ما كان لهم مثلي أن يفوتوا فرصة حضور مراسيم دفنك ورحيلك عنا إلى دار البقاء. فأغلب هؤلاء ما كان لهم أن يترددوا في تفويت هذه الفرصة السانحة، فرصة حضور مراسيم تأبينك وتوديعك بتقديم كلمات وشهادات في حقك لولا ظروف الحرب المدمرة التي أضحت تتحكم في رقابنا وتحد من أسفارنا وتحركاتنا. فرغم عدم تنقلنا بالفعل والقوة إلى لبنان الشقيق موطنك الأصلي، فإن دموعنا الصامتة، أنا وكثير من محبيك وأصدقائك، سالت بحرقة ونحن نودعك إلى مثواك الأخير ولو عن بعد وبطريقة لم نألفها من قبل، تمثلت بالنسبة إل ي شخصيا في تقديم التعازي والمواساة لأسرتك الصغيرة وعائلتك الكبيرة وأهلك وذويك عبر مكالمات هاتفية ورسائل إلكترونية يسرها لنا أحد الأصدقاء في بيروت ثم شبكة علوم النفس العربية للأخ الكريم الدكتور جمال التركي.

بصدق لا يمكنني التطرق في هذه الكلمة / الشهادة الوجيزة إلى شريط ذكريات اختزلت نحو أربعين عاما من الصداقة الصادقة، والصحبة الطيبة، والعلاقة الإنسانية الطاهرة، فضلا عن المشاركة الأكاديمية والعلمية الوازنة. باختصار لقد رحلت أيها الأصل الطيب عن هذا العالم الدنيوي "الأحمق" المهدد في وجوده بـ "غريزة الحرب والدمار وبلذة الهدم

والخراب" على حد تعبير سيغموند فرويد الذي كنت من عشاقه رغم تحفظك على جوانب عديدة من نظريته. لقد رحلت إلى جنة الفردوس بإذن الله وتركت لنا حسن سريرتك، ونبل أخلاقك وتعاملك، وطيب علمك وعملك ثم أجمل ذكريات الأخوة التي ربطتنا بك وبأسرتك الكريمة، ولو في صمت وعن بعد. وليكن في علمك أيها الصديق الصدوق أنني لا أملك بعد رحيلك المفاجئ عنا إلا الدعاء والتضرع إلى الله بأن يكرمك برحمتك وييسر أمورك وأحوالك في دار البقاء وجنة الفردوس. فقد رحلت عنا وبقي إخلاصك ووفاؤك رمزا نسترشد به ونستنير به، وعزاؤنا أن تركت وراءك بعد أسرتك التي نعاضدها ونشد من أزرها، نخبة هائلة من خيرة الشباب المتعلم والكفاءات المتألقة في مختلف الأقطار العربية كلهم عزم وعزيمة لمتابعة المشوار الذي ساهمت بقوة في نحته وهندسته، مشوار خدمة علم النفس والرقي به إلى الأفضل تدريسا وتأطيرا وبحثا وإنتاجا وممارسة. وهو المشوار الذي مثلما كنت دائما تصفه وتردده على مسامعي من خلال بعض لقاءاتنا المحدودة ومراسلاتنا المتعددة يجب أن نسير فيه ونقطعه بوروده وأشواكه إلى أن أصبح اليوم والحمد لله عبارة عن مسلك مؤمن ومفتوح على مستقبل رحب زاهر، قوامه الرقي بهذا العلم وتوسيع دائرة إشعاعه عبر الخروج به من أسوار الجامعات إلى قطاعات المجتمع الحيوية وفي مقدمتها ميادين التعلم والتعليم، التواصل والإدماج، العمل والإنتاج، الصحة والاستشفاء، التقييم والإرشاد، ثم الاستشارة والخبرة.

في النهاية، لا أجد من القول سوى الإقرار بأننا فقدناك وسنفتقدك حقا، وستظل ذكراك محفورة في "الوجدان" الذي كنت تدافع عنه بشراسة ليشكل إلى جانب الذهن ووظائفه المعرفية والتنفيذية الموضوع الرئيس لعلم النفس. فالموت خيار لا مفر منه وقدر لا حيلة معه، وهذه سنة الخالق في خلقه، أنه لا باقي سواه والكل سيفنى. وندعو الله العلي القدير أن يلهم أسرتك وأهلك وكل أصدقاءك وطلبتك ومحبيك الصبر والسلوان ...

والله ولي التوفيق
الخميس 24 أكتوبر 2024